المحاضرة: المدرسة الجزائريةخلال هيمنة الاستدمار الفرنسي ، بين سياسات التّدجين ومقاومَة الإخضاع (الجزء الثاني)

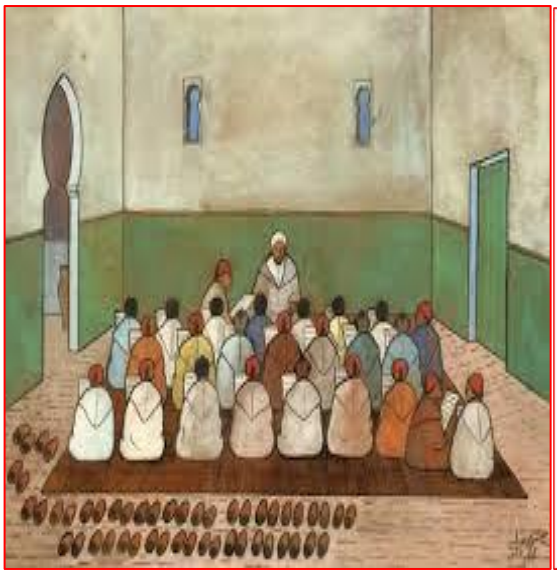

UNE ÉCOLE MODERNE A MOUZAIAVILLE

ECHO
3-11-1937

Le nouveau groupe scolaire de Mouzaïaville, bel immeuble aux lignes sobres, conçu et réalisé suivant la technique moderne : du confort, de l'air, de la lumière

التعليم الأصلي بالجزائر[1] نموذج من المدرسة الاستعمارية بالجزائر1937

الأهداف المنشودة:

- **التعرف على و اقع التربية والتكوين بالجز ائر قبيل الغزو الفرنسي**
- **مدى صحة "همجية الجز ائريين" قبل الغزو؟**
- **أسطورة "المهمة التّحضيرية الفرنسية للجز ائريين"**
- **لمحة تاريخية عامة عن التعليم الاستعماري بالجز ائر**
- **التّعرف على أبرزمعالم السّياسات التّعليمية الفرنسية لتدجين واستضباع الجز ائرين**
- **التعرف على الجهود المحلية لمواجهة السياسات التعليمية الفرنسية**
- **نماذج من مخرجات المدرسة الفرنسية بالجز ائر**

[1] http://alger-roi.fr/Alger/mouzaiaville/pages/12_mouzaia_ecoles.htm

مساهمة آل القَلم والكرّاس في شرعَنَة سياسات الاستدمار الفرنسي:

- بطبيعة الحال -الغبيّ كلّ الغبيّ- من يعتقد أنّ غزو واستطالة استعمار الجزائر، وباقي الشّعوب المستَعمَرَة[2] كان بالسّيف والمدفَع فقط، بل **سَبق وصاحَب ولَحِقَ** ذلك تحضير أيديولوجي وعقائدي، وديني عميق وواسع، كان في صفوفه الأولى عديد المفكرين والفلاسفة والسّياسين ورجال الدّين، حتّى ممّن وصفوهم لنّا بأوصاف محمودة (دعاة الإنسانية، الحرية، الديموقراطية...)[3]. ولعلّ من أكبر المفكرين والأدباء الفرنسيين - والأوروبيين- الّذي ذكرهم "روجي غارودي Roger Garaudy "(1913-2012) ممن هلّلوا وطبّلوا وألّبُوا "الوافدين" الأوروبين وزيّنوا لهم وهم العيش في نعيم "الحدائق الرّومانية الغَنّاء"، بالشّرق المتخلِّف والمنحَط. حيث باركوا غزو إفريقيا- وبالتّالي الجزائر- فكريا وأدبياً (نثرًا وشعرًا)، وفلسفياً، وحطّوا من قيمة شعوب الشّرق، بحجج ويافطات متعدّدة.
- يذكر " James McDougall " في متن كتابه "تاريخ الجزائر A History of Algeria "، 2017 . ضمن جهود تقديم العون في إدارة المستعمرة الجديدة، قام المستشرقون والإثنواغرافيون وضبّاط المخابرات الفرنسيّون بجمع معلومات موسّعة عن البلاد. لكن البيانات ظلّت مجزّأة تفتقد إلى ناظم لها حتّى عام 1856، عندما نشر مستشرق إيرلندي ترجمته لكتاب عربي في التّاريخ يعود للقرن الرّابع عشر، حيث مكّنت ترجمته الفرنسيين من جمع كل تلك البيانات المتفرّقة في نظرة شاملة للجزائريين وسكان المغرب (الرويغي، 2019).

---

[2] بلغت مساحة الإمبراطورية الاستعمارية سنة 1930 حوالي 10 ملايين كليومتر مربع.

[3] بطبيعة الحال هذا لا يعني عدم وجود أعلام ومفكرين إمّا وقفوا ضدّ الاستعمار بكل الوسائل، ومع الشّعوب المستضعَفة، وإمّا وَقفوا موقف حياد .

- ومن بين أنصار القَلم والكرّاس الذين شرعنوا للاستعمار سياسات "الاخضاع والإذعان" للشّعوب المستعمَرَة بكل الأساليب، نذكر "François-René de Chateaubriand" -الّذي اتّهم المسلمين بجهل الحرية وعبادَة القوّة-، و" Gustave Flaubert " و" Victor Hugo" وغيرهم كثير، ممن قُدِّمُوا لنا كرموز ودعاة الإنسانيّة[4].
- هاهو "فيكتور هيغو" لمدّة عشرة سنوات يدافع عن تصوره لفلسفته الاستعمارية من خلال رسالتان وعدّة خطابات حول الشّؤون الخارجية لفرنسا، ورحلتان وتقريران رسميان قُدِّما في مارس 1847 إلى مجلس النّواب الفرنسي، مع عديد من الملاحظات والتّحليلات المنشورَة في مراسلاته، يعرض فيها فلسفته للغزو الفرنسي في شمال إفريقيا[5]. ليخلص بعد دراسته للقرآن الكريم، إلى أنّ دين محمد هو 'السّبب الرّئيسي لانحطاط (...) العالم الإسلامي' (Grandmaison, 2001). وبتاريخ 18ماي1879، يصدع أمام "فيكتور شولشر Victor Schoelcher" [6]وباقي ضيوف احتفالية إلغاء العبودية la commémoration de l'abolition de l'esclavage قائلا:

---

[4] العيب فينا وليس في من قدّمهم لنا، لأنّنا لا نريد أن نقرأ التّاريخ جيّدا.

[5] يذكر "رمزي الرويغي" أستاذ مشارك في دراسات الشرق الأوسط بجامعة جنوب كاليفورنيا، ومؤلف كتاب "اختراع البربر: التاريخ والأيديولوجيا في المغرب"، الذي يقارب من خلاله مسألة العِرق في المغرب العربي كمنتوج ثانوي للاستعمار الفرنسي أفرزت حقائق حديثة تشكّلت على إثرها نظرة المجتمعات المغاربية لذاتها القومية والمحليّة ونجمت عنها تقسيمات عرقية واجتماعية مُخترعة بالكامل. بأن كلمة "المور Moor" هو اللقب الذي اعتاد الأوروبيون استخدامه منذ العهد الروماني لوصف مجموعات سكّانية متنوعة اتخذت من بلاد المغرب موطنا لها، ما يعني أن اللقب ضارب في القدم. ومع أنه قد لا يكون من بين الأسماء التي أطلقها السكان على أنفسهم، غير أن استخدامه أدى إلى تجاهل مسألة أكثر تعقيدا، هي طريقة تعريف هؤلاء الناس لأنفسهم لأن ما نعرفه عن المور القدامى هو ما وصلنا من الرومان. عندما فتح العرب المسلمون المغرب في القرن السابع الميلادي أطلقوا لقب "البربر" على أولئك الذين اعتاد الرومان تسميتهم بالمور، بالإضافة إلى من أسماهم الرومان بالبرابرة أو غيرها من المسميات. كن بعد أكثر من 1000 سنة على الفتح الإسلامي، أي بحلول القرن الثامن عشر، لم يعد سكّان بلاد المغرب يعرّفون أنفسهم بالمور ولكن على إنّهم إمّا عرب أو بربر. (رمزي الرويغي، كيف اخترع الاستعمار الفرنسي التقسيمات العرقية في شمال إفريقيا؟، ترجمة فرح عصام، موقع الجزيرة، 2019/12/20).

[6] صحافي وسياسي فرنسي أسمر البشرة، معروف بنضاله لصالح الإلغاء النهائي للرّق في فرنسا، من خلال مرسوم الحكومة المؤقتة للجمهورية الثانية ل 27 أبريل 1848.

- .. *'Messieurs, il y a un second point, un second ordre d'idées que je dois également aborder (...) : c'est le côté humanitaire et civilisateur de la question. (...) Messieurs, il faut parler plus haut et plus vrai ! Il faut dire ouvertement qu'en effet les races supérieures ont un droit vis-à-vis des races inférieures. (...) Je répète qu'il y a pour les races supérieures un droit, parce qu'il y a un devoir pour elles. Elles ont le devoir de civiliser les races inférieures. (...) Ces devoirs ont souvent été méconnus dans l'histoire des siècles précédents, et certainement quand les soldats et les explorateurs espagnols introduisaient l'esclavage dans l'Amérique centrale, ils n'accomplissaient pas leur devoir d'hommes de race supérieure. Mais de nos jours, je soutiens que les nations européennes s'acquittent avec largeur, grandeur et honnêteté de ce devoir supérieur de la civilisation.*

- .."أيها السّادة، هناك نقطة ثانية، ترتيب ثانٍ للأفكار يجب أن أتناوله أيضًا (...): إنّه الجانب الإنساني والحضاري للمسألة -يقصد الاستعمار-. (...] أيها السّادة، يجب أن نتحدث بصوت أعلى وأصدق! يجب أن يُقال صراحةً أنّ الأجناس المتفوّقَة حقًا لها حق مقابل الأجناس الأدنى. (...) أكرر أنّ هناك حقّ للأجناس المتفوّقَة، لأنّ هناك واجب عليهم. من واجبهم تَحضِير الأجناس الدُّنيا. (...] غالبًا ما تَمَّ التَّغاضِي عن هذه الواجبات في تاريخ القرون السابقة، وبالتأكيد عندما قدّم الجنود والمستكشفون الإسبان العبودية في أمريكا الوسطى، لم يكونوا يقومون بواجبهم كرجال عرق متفوق. لكن في الوقت الحاضر، أصرُّ على أنّ الدّول الأوروبيّة تؤدّي بسعة وعظمة وصدق هذا الواجب الحضاري الأسمى".

- تمّ ذلك بعد تذكير "هيغو" بالدّول الأربع الّتي ينبع منها التّاريخ الحديث (اليونان وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا)، وبضرورة الاتّحاد معا "للتّوجه إلى الجنوب alle[r] au sud " (أي إلى إفريقيا)، لتحقيق ما سمّاه بمهمّة أوروبا والمتمثلة في "إعادة بناء إفريقيا الجديدة، وجعل

إفريقيا القديمة قابلة للإدارة من أجل الحضارة «Refaire une Afrique nouvelle, rendre la vieille Afrique maniable à la civilisation"، بالاستيلاء عليها، ليس للمدفع ولكن للمِحراث، ليس للسَّيف بل للتّجارة، ليس للمعركة بل للصّناعة. ليس من أجل الفتح بل من أجل الأخوّة". يُقال أنّ "فيغو" كان يفضل الاستعمار المدَني على العسكري، وطالب بضرورة تطوير الغزو العسكري لاحتلال مدني كدِرع واقي لحماية الحظيرة الجديدة، أي طالب بتحقيق "الاستعمار الاستطاني" وكان له ذلك في الجزائر.

- رغم ذلك كان "فيكتور هيغو" استعمارياً بامتياز، لم تسهم أفكاره الإنسانية في معارضة لغزو الجزائر، فقد أبدى منذ جويلية 1830 مناصرته الكاملة للاحتلال. برهنت عليه لقاءاته مع الجنيرال المجرم[7] "بيجو Bugeaud" 1841، و1846، للإقناعه بمساندته لرفع ميزانية الجيش في الجزائر لاستكمال الاحتلال، باعتباره نائباً برلمانياً. وكان يعتقد أنّ الغزو حدث سعيد، ووصفه بالحضارة المتغلغلة في البلاد البربرية. كما وصف المعمِّرين بالشّعب الُمستَنِير السَّائر للقاء شعب يعيش في الظّلمات. وأصبح منذ سنة 1849 يدعو إلى احتلال بوجه إنساني. وظلّ الأمر كذلك إلى غاية نفيِه سنة 1851 من قبل نابليون الثالث، وكتب بأنّه أخطأ وتعرّض للتّضليل بخصوص احتلال الجزائر- بعد ماذا؟ ، بعد أن شجّع وبرّر له انتهاكاته-. وكتب في كراساته عن بربرية الجيش الفرنسي، لكنّه رفض أن يدلي بأيّ تصريح رغم علمه بتجاوزات الجيش وحرب الإبادة (عبد القادر حميد، 2014).

[7] https://www.youtube.com/watch?v=MlUvwpdXUx4 شهادة أحد الفرنسيين على ما فعله بيجو بالجزائريين.

- سنة 1980تَمَّ الكشف عن نصوص حول رسائل "أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville" حول الجزائر، صاحب الأسطورة الذّهبية "مفكر الدّيمقراطية الحديثة Penseur de la démocratie moderne " في التّبشير للاستعمار بالجزائر، حيث قدّم الحرب والاستعمار كعلاج للأمراض الاجتماعية والسّياسية الّتي تعاني منها فرنسا، وضرورة الحفاظ على مكانتها بين الدّول القويّة- بطبيعة الحال باستعمار الشّعوب-. كما كشفت عن مؤازرته وشرعنته للغزو الدّموي وللمجازر Il légitimait les boucheries ، (Grandmaison, 2001).

- كما ساهم بفعالية ضمن حملة دعائية واسعة أطلقتها السّلطات الاستعمارية من أجل شحذ الهمم والأصوات لفكرة احتلال الجزائر في أوساط المثقفين الليبراليين، ومحاولة شرعنة خرافة "إفريقيا اللاتينية" الموروثة عن الرومان، باعتبارهم خلفاء لهم. كما دعا إلى اتّخاذ إجراءات جذريّة من شأنها أن تسمح بالاستيلاء على الجزائر وكسر عشر سنوات من التَّسويف والمماطلة (Grandmaison, 2001). كما بارك الاستعمار بكل أساليبه واعتبره وسيلة لا مناص منها لتحضير الهمجيين والبرابرة -بمعناها السّلبي-. حيث كتب محرِّضاً: "إنّ الفكرة القائلة بالاستحواذ على إفريقيا والاحتفاظ بها بفضل المساعدة والدّعم من طرف الأهالي، حُلم يراود ذوي القلوب النَّبيلة السَّخية، ولكنّها مجرّد ترّهات واهيّة". وأردف قائلا:

- *« J'ai souvent entendu en France des hommes que je respecte, mais que je n'approuve pas, trouver mauvais qu'on brûlât les moissons, qu'on vidât les silos et enfin qu'on s'emparât des hommes sans armes, des*

femmes et des enfants. Ce sont là, suivant moi, des nécessités fâcheuses, mais auxquelles tout peuple qui voudra faire la guerre aux Arabes sera obligé de se soumettre ».

"كثيرًا ما سمعت في فرنسا عن رجالًا أحترمهم، ولكنّي لا أوافقهم الرأي، حينما يقولون أنّه من السَّيئ أن يتمّ حرق المحاصيل، وإفراغ الصّوامع، والاستيلاء على الرّجال العزّل، والنّساء والأطفال. هذه في رأيي، ضرورات مؤسِفَة، لكن أيّ شعب يريد شنّ حرب على العرب سيكون مضطرًا للّجوء لها (الإجراءات القمعيّة) ". وواصل ألكسيس دي توكفيل:

- *« Je crois que le droit de la guerre nous autorise à ravager le pays et que nous devons le faire soit en détruisant les moissons à l'époque de la récolte, soit dans tous les temps en faisant de ces incursions rapides qu'on nomme razzias et qui ont pour objet de s'emparer des hommes ou des troupeaux.* (Alexis de Tocqueville, 1991, pp. 704 - 705.)"

- "أعتقد أنّ قانون الحرب يسمح لنا بتدمير البلاد، ويجب علينا القيام بذلك إمّا عن طريق تدمير المحاصيل وقت الحصاد، أو في جميع الأوقات، من خلال القيام بتلك الغارات السّريعة التي نسمّيها المداهمات، والتي تهدف إلى الاستيلاء على الرّجال والقُطعان ".

ولم يمتنع "ألكسيس دي توكفيل" عن إضافة:

"على أيّ حال ، يمكننا القول بشكل عام إنّه يجب تعليق جميع الحريات السّياسية في الجزائر".

- تبريرات وتخريجات "إجراميّة" شجّعت الجيش الفرنسي[8] على إرتكاب فضاعات وإبادات واسعة، قدّرت حصيلتها البشرية في البدايات حسب "بيير مونتانيون Pierre Montagnon " "ما

[8] لأنّنا سنحتاج توضيح ذلك في المحاضرات اللاّحقة سنلخص تركيبة الجيش الفرنسي المحتل (جيش افريقيا Armée d'Afrique) : يتألف من صنفين من التنظيمات: I. التنظيم الأوربي يتألف من ضباط وجنود فرنسيين،

بين 500.000؟ ومليون قتيل؟، وهنا يجب أن تكمن الحقيقة بين هذه الأرقام. والتّقليل من شأنها يخفي حقيقة رهيبة"[9] ، في مجتمع لايتجاوز سكانه الثّلاثة ملايين نسمة حسب المؤرّخ"Denise Bouche" (Bouche, 1998, p. 23). كما افتخر "توكفيل" بقوّة فرنسا ونصرها، رغم جهلها -حسبه لأنّ كتابات تقول أنّه كانت هناك بعثات أنتروبولوجية قبلية لدراسة المجتمع الجزائري، ومكوّناته السّوسيوأنتروبولوجية-، قائلا: "جهلنا الكامل تقريباً بكل هذه الأمور، لم يمثل عقبة أمام انتصارنا، لأنّ النصر في المعركة حليف الأقوى والأكثر جسارة، لا الأكثر اطلاعا".

- وذكر في موضع آخر منتقدًا سياسة الجيش الفرنسي تجاه المعمّرين:

- *Il ne faut pas imaginer que la méthode à suivre pour faire naître et développer les sociétés nouvelles, diffère beaucoup de celle qui doit être suivie pour que les sociétés anciennes prospèrent. Voulez-vous attirer et retenir les Européens dans un pays nouveau ? Faites qu'ils y rencontrent des institutions qu'ils trouvent chez eux ou celles qu'ils désirent y trouver; que la liberté civile et religieuse y règne; que l'indépendance*

أ . الزواف جيشه أوربي خالص لا وجود فيه لعناصر جزائرية منذ 1841.

ب. اللّفيف الأجنبي.Légion étrangère

ج. القناصة الأفارقة Chasseurs d'Afrique

د . فيالق الهندسة الخفيفة الإفريقيةBataillons d'infanterie légère d'Afrique .

2. جيش فرنسي من الجزائريين: يتكون من:

أ. تنظيم زواف ZOUAVES من الأهالي الجزائريين بداية (قبائل ، عرب ، كراغلة ، أندلسيين فلاحين ناقمين على قسوة الحكم التركي) ثم مختلط فرنسي جزائري وقد استبعد الجزائريون من هذا التنظيم نهائيا بأمرية 1841.

ج)القناصة الجزائريون Tirailleurs algériens ويعرفون اختصارا ب (Turcos) ثم بعدها قناصة المغرب وتونس.

د) الصُبايحِيَة (السبايس) Spahis

ه) القُومِيَة المغاربة Goumiers marocains

و) فرق المهاري الصحراوية (المهاريست الشعانبة)

ز) وحدات المدفعية والهندسة والصيانة والخدمات. (المعلومات من: *الطيب آيت حمودة،" الزواف* zouaves *أو الخديعة الكبرى [ج2]"*. الحوار المتمدن-العدد: 6245 – 2019. https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=638866&r=0

[9] Pierre Montagnon, "La Conquête de l'Algérie », Paris, Pygmalion, 1986, p. 414. Cité in : Olivier Le Cour Grandmaison, « Les impasses du débat sur la torture en (Grandmaison, 2001)Algérie, Quand Tocqueville légitimait les boucherie ; Juin , 2001. https://www.monde-diplomatique.fr/2001/06/LE_COUR_GRANDMAISON/1706

individuelle y soit assurée; que la propriété s'y acquière facilement et soit bien garantie; que le travail y soit libre, l'administration simple et prompte, la justice impartiale et rapide; les impôts légers, le commerce libre; que les conditions économiques soient telles qu'on puisse facilement s'y procurer l'aisance et y atteindre souvent la richesse; faites, en un mot, qu'on y soit aussi bien, et, s'il se peut, mieux qu'en Europe, et la population ne tardera pas à y venir et s'y fixer. Tel est le secret, messieurs, il n'y en a point d'autres.

"لا ينبغي أن نتخيّل أنّ الطريقة الّتي يجب اتّباعها في إنشاء المجتمعات الجديدة وتطوّرها مختلفة تمامًا عن تلك الّتي يجب اتّباعها حتّى تزدهر المجتمعات القديمة. هل ترغب في جذب الأوروبيين والاحتفاظ بهم في بلد جديد؟. اجعلهم يجدون مؤسّسات ذات حرية مدنية ودينية، حيث الاستقلال الفردي مضمون، والحصول على الممتلكات يسير، ومضمون جيّدًا، أن يجدوا إدارة بسيطة وسريعة، وعدالة نزيهة وسريعة، وضرائب خفيفة، وتجارة حرّة، أن تكون الظّروف الاقتصادية مناسبة حتى يتمكن المرء بسهولة الحصول على الرّاحة، ويحقق الثّروة. باختصار، فليكن الأمر جيدًا هناك، وإذا أمكن، أفضل ممّا هو عليه في أوروبا، ولن يتأخّر السّكان في القدوم والاستقرار هناك. هذا هو السِّر، أيّها السّادة، لا يوجد آخر" (Tocqueville, 1847, p. 404).[10]

- بقيت كتابات مغيَّبة لعقود[11] ، كشفت مؤخّرا ما جعل بعض المفكرين والنّقاد، وحتّى المتتبّعين يطعنون في مصداقيّة ونزاهة كتاباته السّابقة، خاصّة بأمريكا حول الدّيموقراطية والحرية، خاصّة كتابه "De la démocratie en Amérique" ، 1841 و *L'Ancien Régime*

[10] Cité dans : Alix Héricord, « **Libéral versus colonial, sortir de la contradiction ?** », Labyrinthe, 29 | 2008, 29-40.

[11] يذكر الباحث Olivier Le Cour Grandmaison أن هناك غياب بل تغيب تام لدراسة ونقد كتاباته حول تبريره للاستعمار الفرنسي بصفة عامة وللجزائر خاصة، لغايات متعددة، باستثناء "تسفيتان تودوروف Tzvetan Todorov "، عرض عدّة نصوص له عن الجزائر. منها:

De la Colonie en Algérie ،Complexe ،Bruxelles 1988 ،

Nous et les Autres ،Seuil ،Paris ،1989 ،"Tocqueville" ،pp. 219-234.

et la Révolution. صدق *ما* نقله "الونشريسي" في مؤلف "المعيار" أنّ القاضي "محمد المقري"، أستاذ "ابن خلدون" عندما قال مرّة بأنّ "شَرّ العلماء علماء السّلاطين".

مفارقات سياسات التّربية والتّكوين الاستعمارية بالجزائر:

- بنزعة تمركز ذاتي Ethnocentrisme زائدة، رافع "Jules Ferry" (1832-1893)، مهندس فلسفة التّعليم الفرنسي الحديث عن جملة قوانين، خاصّة بمدارس الجمهورية، تلخصت في ثلاثيّة (المجانية والإلزامية والعلمانيّة la gratuité, l'obligation et la laïcité)، بتاريخ 28 يوليو 1885 ، أمام مجلس النّواب[12]:

- *Messieurs, il y a un second point, un second ordre d'idées que je dois également aborder [...]: c'est le côté humanitaire et civilisateur de la question. [...] Messieurs, il faut parler plus haut et plus vrai! Il faut dire ouvertement qu'en effet les races supérieures ont un droit vis-à-vis des races inférieures. [...] Je répète qu'il y a pour les races supérieures un droit, parce qu'il y a un devoir pour elles. Elles ont le devoir de civiliser les races inférieures.[...] .Ces devoirs ont souvent été méconnus dans l'histoire des siècles précédents, et certainement quand les soldats et les explorateurs espagnols introduisaient l'esclavage dans l'Amérique centrale, ils n'accomplissaient pas leur devoir d'hommes de race supérieure. Mais de nos jours, je soutiens que les nations européennes s'acquittent avec largeur, grandeur et honnêteté de ce devoir supérieur de la civilisation.[...]La politique coloniale est fille de la politique industrielle* (Ferry, 28 juillet 1885).

- *"أيها السّادة ، هناك نقطة ثانية، ترتيب ثانٍ للأفكار يجب أن أتناوله كذلك [...]: إنّه الجانب الإنساني والحضاري للمَسألة. [...] أيّها السّادة، يجب أن نتحدث بصوت أعلى وأصدق! يجب أن يُقال صراحةً أنّ الأجناس المتفوّقة حقًا لها حق مقابل الأجناس*

[12] مقابل ذلك تمّت ترقيته إلى منصب وزير المستعمرات ministre des Colonies (1883-1885).

الأدنى. [...] أكرر أنّ هناك حقّ للأجناس المتفوقة، لأنّ لها واجب تجاههم. عليهم واجب تحضير الأجناس الدّنيا. [...]. غالبًا ما تمّ التّغاضي عن هذه الواجبات في القرون السّابقة. بالتّأكيد عندما أدخل الجنود والمستكشفون الإسبان العبودية إلى أمريكا الوسطى، لم يكونوا يقومون بواجبهم كرجال من العرق المتفَوّق. لكن في الوقت الحاضر، أصرّ على أنّ الدّول الأوروبية تؤدّي بسخاء وعظمة وصِدق هذا الواجب الحضاري الأسمى ... السّياسة الاستعمارية حفيدة السّياسة الصّناعية[13]".

- من سيمات المدرسة الّتي دعا إليها " Jules Ferry" أنّها مدرسة تعبّر عن 'عنصرية الدّولة Racisme d'État' باسم 'عَقيدة جمهورية Credo républicain' معيّنة، خاضعة لسلطة مصالح ورهانات البرجوازية الصّناعية والمالية الفرنسية، سواء بالعاصمة باريس أو بمستعمراتها.
- ولأنّ المدرسة بتعدّد أشكالها ووظائفها المُضمَرَة تعتبر قاطرة اخضاع وتدجين الأفراد والمجتمعات، خاصّة المغلوب على أمرها، بما فيها المستعمَرَة، عملت السّلطات الاستعمارية على تأسيس انتقائي للجهاز المدرسي الفرنسي -المؤَدْلَج حتى النُّخاع-

---

[13] فردّ عليه " Georges Clemenceau " من معارضي الاستعمار آنذاك قائلا: "أنتقل الآن إلى نقد سياستك حول الغزو من وجهة نظر إنسانية. [...] 'لدينا حقوق على الأجناس الدّنيا'. للأجناس المتفوقة حق على الأعراق الدنيا، وهذا الحق، من خلال تحول معين، هو في نفس الوقت واجب حضاري. هذه هي أطروحة السيد "فِيري" ، ونحن نرى الحكومة الفرنسية تمارس حقها على الأجناس الأدنى بشنّ الحروب ضدّهم وتحويلهم بالقوة إلى نِعَم الحضارة. سلالات متفوقة! سلالات دنيا! سرعان ما قيل. من ناحيتي ، شعرت بالإحباط منذ أن رأيت العلماء الألمان يبرهنون علميًا على وجوب هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية الألمانية، لأنّ الفرنسيين من عِرق أدنى من الألمان. منذ ذلك الوقت ، أعترف أنني أنظر مرتين إلى رجل وحضارة قبل أن أتوجه وأنطق: إنسان أو حضارة دنيا[...] !". لم أفهم كيف أننا لم نجمع على الاحتجاج بعنف ضدّ كلماتك. لا، لا يوجد حقّ لما يسمى بالدول العليا ضد الدول الدّنيا. [...] الغزو الذي تدعو إليه هو الإساءة الصريحة للقوة التي تعطيها الحضارة العلمية على الحضارات البدائية (الأولية) لامتلاك للإنسان، وتعذيبه،باستنزاف قوته لصالح ما يسمى بالتّحضُّر. إنه ليس االواجب بل هو السَّلب. إنّ الحديث عن الحضارة هو إضافة النّفاق للعنف". (Patrice Delpin, « Débats sur la politique coloniale en France », 2015). https://clio-texte.clionautes.org/debats-sur-la-politique-coloniale-en-france.html

للجزائر، غير أنّها لقيت مقاومة خارجيّة من لدن الفرنسيين بباريس بحجة عبثية العملية، وتكلفتها، إذ رأى فَصيلٌ من البرلمانيين والسّياسيين والعسكريين عدم جدوى التّعليم للأهالي الجزائري، إذ رغم محاولة "جول فيري" لاخضاع واستيعاب المسلمين من خلال المدرسة، بتعميم تعليمهم، غير أنّ المستوطنين الأوروبيين عارضوه بشكل صارخ وقويّ، وهم يهتفون: 'يمكنك التّخلي عن الجزائر!' -لصالحهم طبعا-.

- في حين دافع بعضهم عن سياسة تعليم انتقائي للفرنسيين والأوروبيين والمُجَنَّسِين الجُدُد بالجزائر ومعهم فئة متميّزة من الجزائريين يتم إقناعها وتدجينها، ليس لسواد عيونها، وإنّما من أجل أن تكوين فئة مُخبرين Informateurs و"وُسطاء Intermédiaires"، أي ما يسمى وُسَطاء الاستعمار Les intermédiaires de la colonisation، للتّأثير على أبناء جلدتهم وثقافتهم لتيسير عمليات التّدجين.
- مما يسجل على سياسة التّعليم الاستعماري تذبذبها الواضح مدّة تسعين سنة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث اقتنع -طوعاً وكرهاً- جلّ القائمين على الشّأن الاستعماري بضرورة توسيعه ليشمل شريحة مهمّة من أبناء الجزائريين. فئة من الجزائريين كمعلمين، ومترجمين، وعمال منفذين للأوامر الفرنسية (أولاد/حزب فرنسا بلغة اليوم). يصف ذلك الباحث " Ghouati Ahmed" قائلا:

'D'un point de vue historique, nous savons que les moyens humains et matériels mis en œuvre à travers l'extension des lois Ferry à l'Algérie à partir de 1883 étaient à peine adaptés à la formation de quelques cadres intermédiaires et d'un stock minimal d'une main d'œuvre alphabétisée en français pour les

besoins de l'entreprise coloniale. Contrairement à une idée répandue, il n'y avait pas de volonté politique de scolariser massivement les « indigènes » "(Ghouati, 2009) .

" من وجهة نظر تاريخية، نعلم أنّ الموارد البشرية والمادية المسَخَرَة لتنفيذ قوانين فِيري في الجزائر منذ 1883 بالكاد كانت صالحة لتكوين بعض الأُطُر كوُسَطاء، وتوفير حد أدنى من مخزون القِوَى العاملة ّالتي تعرف أبجديات القراءة والكتابة والحساب بالفرنسية تلبية لاحتياجات المشروع الاستعماري. على عكس الفكرة السّائدة لم تكن هناك إرادة سياسية للتّعليم واسع للأهالي" .

قانون الإنديجينيا Lois des indigènes وسياسة الاستئصال المجتمعي:

- ولمأسَسَة الظّلم وعدم المساواة والإبادة المجتمعيّة بكلّ معانيها عمدت السّلطات الاستعمارية وتحت سلطة "جول فيري" لفرض قانون Indigénat في 1887 على جميع مستعمراتها، بعدما كانت قد شرّعته في 1881على السّكان الأصليين والمستوطنيين[14]. قانون يُناقض حتّى مبادىء الجمهورية والحقوق الطّبيعية الأساسية للبشر الّتي كانت تتبجَّح بها فرنسا، ويلغي أسطورة محاسن الاستعمار. كان الهدف المُضمَر منه إخضاع السّكان الأصليين والعمال المهاجرين للعمل القَسرِي بما تراه هذه السّلطات، ومنح صلاحيات واسعة للجهات القضائية الاستعمارية، للتّضييق على حريات الأفراد- باستثناء الأحوال الشّخصية في الدّين والعُرف- وحجر ممتلكاتهم بحجة المحافظة على

[14] وكذلك فعل البريطانيون والبرتغاليون والهولنديون في مستعمراتهم، لكن بشدّة وخطورة متفاوتة، لأن أخطر استعمار هو الاستعماري الاستطاني الذي مارسته فرنسا.

النّظام وخدمة الصالح العام للبلاد، كما مَنح سلطة للمتصرفين الإداريين ورؤساء البلديات، بحبس الأشخاص ومصادرة أملاكهم دون حكم قضائي مسبق، وفرض وتنويع الضّرائب على كل النّشاطات اليومية (الأسواق، تربية الجيوانات، التّنقلات بين القرى، الالتزام بتعليمات الحاكم في نزع ملكية الأراضي، استضافة الأجانب من القُرى المجاورة، حَطب الأخشاب..، وغيرها من التّدابير المُهِينَة لهم.

- قانونٌ من رَحِم الفلسفة الاستعمارية الرّأسمالية، من أجل تدعيم أرباب الصّناعة الفرنسية، من خلال تدعيم مصالح المستوطنين ب"الجزائر الفرنسيّة" لخدمة "فرنسا الفرنسيّة". معمّرون جاؤو من بلدانهم فقراء، لكن نتيجة مثل هكذا سياسة أضحوا أغنياء يتحكّمون في خيرات البلاد وأعناق العباد من الجزائريين الأقحاح. حيث كتب "رمزي الرويغي" قائلا: "وأدى التّحويل التّدريجي للجزائر إلى بلد صناعي لتحويل العديد من هؤلاء المزارعين الأوروبيين الفقراء إلى طبقة عاملة حضرية تحصل على وظائف أفضل، وتنال أجورا أعلى من جموع المسلمين. وبينما تحوّل الفقر الشّامل للأهالي إلى حقيقة اجتماعية لا تقبل الشّك، إلاّ أن الاستعمار استخدمها كدليل على صحة تحميل السّكان وحدهم مسؤولية وضعهم الحالي" (الرويغي، 2019).
- يميّز القانون بين **فئتين من المواطنين**: المواطنون الفرنسيون Citoyens français(فرنسي الأصل Français de race et de naissance من باريس)، والرَّعايا الفرنسيينSujets français من الأفارقة السّود والملغاشيين والجزائريين، إلخ. مع ضرورة محو أصلهم المحلي (جزائري، مالغاشي،...)، تجريدهم من هوياتهم الأصليّة، إنّها إبادة ثقافيّة بكلّ إصرار وترصّد.

قوانين "جائرَة" ستُضفي لنتائج وخيمة على البنيّة الاجتماعية للمجتمعات المستَعمَرة، وتؤدّي لحالة استئصال واجتثاث Le déracinement من أصولها كما خلص "بورديو" و"عبد المالك صياد" عن المجتمع الجزائري[15]، وارتداته على مختلف البُنى الثّقافية والاجتماعية والاقتصادية والتّعليمية.

"Brutalement, pour des millions de paysans, la base morphologique de la structure sociale est bouleversée et que ce « bouleversement affecte et altère tous les niveaux de la réalité sociale ». Mais les regroupements n'ont fait qu'achever « ce que la politique coloniale et la généralisation des échanges monétaires avaient commencé ». En effet, « tout se passe comme si cette guerre avait fourni l'occasion d'accomplir jusqu'au bout l'intention latente de la politique coloniale, intention profondément contradictoire » car « ... la volonté de détruire les structures de la société algérienne a pu s'inspirer d'idéologies opposées : l'une dominée par la considération exclusive de l'intérêt du colonisateur...s'est exprimée souvent avec cynisme ; l'autre, assimilationniste ou intégrationniste, n'est plus généreuse qu'en apparence.«

" اضطربت القاعدة المورفولوجية للبنيّة الاجتماعية بشكل عنيف بالنّسبة لملايين المزارعيين. ما سيؤثر ويغيّر جميع مستويات الواقع الاجتماعي ". لكن في الحقيقة إعادة التّجميع (المحتشدات)، وتعميم التّبادل النّقدي، أتمّت فقط "ما بدأته السّياسة الاستعمارية". في الواقع، كلّ شيء حدث وكأنّ هذه الحرب قد أعطت الفرصة لتجسيد النِّية المُضمَرَة للسّياسة الاستعمارية، نِيَّة مُتناقضة في جوهرها. 'لأنّ' ... إرادة تدمير بنيات المجتمع الجزائري أفضّت للأيديولوجيات المعارضة: الأولى يُهيمن عليها فقط التّركيز على

[15] P. Bourdieu et A. Sayad, « Le Déracinement. La crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie ». 1964. Collection Documents, 228 pages.

مصالح المستعمِر، حيث تعاملت معه -الشّعب- بسخرية واستهتار،... وأخرى استيعابيّة أو ادماجية، لم تعد سَخيّة سوى نظريًا".

سياسة "فرّق تَسُد" روح الاستراتيجية الاستعمارية:

- من الاستراتيجيات الّتي امتهنها الاستعمار بالجزائر -وباقي المستعمرات- المراهنَة على تفكيك البِنية المجتمعية القائمة، بتمزيق الانسجام الاجتماعي الدّاخلي بين القبائل والأعراش والأعراق والجهات،رغم وجود بعض النّزاعات خاصّة على أراضي الرّعي والمياه. ومن أبرزها التّركيز على منطقة القبائل بوجه خاص، لصناعة ما سمّاه المؤرّخ "Charles-Robert Ageron " في كتابه "الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871.1919"[16] بالوَهم، أو الأسطورة القبائليّة Mythe kabyle، حيث تمّ تجنيد جيش من العسكرين والسّياسين[17] والباحثين من تخصّصات متعدّدة، خاصّة من العلوم الإنسانية والاجتماعية لتجسيد ذلك، لبثِّ الفِتنَة والتّفريق بين "الجِنس الأسفل" العرب عن "الجنس الأعلى" البربر، ذو الأصل الرّوماني أو الوِندالي أو الغُولي، جنسٌ بإحدى عشرة سمة مميّزة في المظهَر والمخبَر حسب دعاياتهم واشاعاتهم، ومثلها من سِمات دونيّة منحطّة للجنس العربي".

[16] Les Algériens Musulmans et la France (1871–1919). Presses Universitaires de France, 1968, 2 tomes, 1300 pages,

[17] « Les Kabyles seraient l'élément colonisateur par excellence que nous devrions employer pour faire de l'Algérie une véritable France»; Jules Liorel, Kabylie du Jurjura, Éditions Leroux, 1892.